تفسير وتدبر

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

[الحجر]

إعداد الباحث

إبراهيم عيسى إبراهيم صيدم

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

الجامعة الإسلامية – غزة

١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م

إبراهيـــم عيسى إبراهيم صيـــدم.

قسم التفسير وعلوم القرآن، الجامعـــة الإسلامية، فلسطين.

البريد الإلكتروني: **isydum@iugaza.edu.ps**

الملخص:

تناول هذا البحث تفسير وتدبُّر الآية التاسعة من سورة الحِجْـــر، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، فبيَّنَت أولاً معنى التفسير والتدبر، وما يعين على تدبر القرآن وفوائده، وأَوْضَحَت موقع الآية وارتباطها مع السياق، وبيان الظروف التي نزلت فيها، حيث كشفت عن شبهات المشركين حول رسالة النبي ﷺ، واتهامه بالجنون، وإنكارهم للجهة المَنزِّلة للقرآن الكريم، فردّت عليهم الآية بأوجز ردٍّ وأبلغِه، كما بيَّنت الدراسة ما تضمنته الآية الكريمة من معانٍ واسعة؛ فبعد تفسيرها تفسيراً إجمالياً، تمّ دراستها من ناحية التركيب واختيار الألفاظ ودلالاتها، بما يكشف عن إعجاز القرآن، وقد استخدمت المنهج الاستنباطي والتحليلي لمعرفة دلالات الألفاظ واستقصاء معانيها .

ثم خَلُصَ البحث بالنتائج، وأهمها :

إن هذه الآية رغم قِصَرِها وقِلَّة ألفاظها، إلا أنها تحمل معانٍ واسعة، وتدل على حقائق ثابتة لا يستطيع أحدٌ إنكارها، مما يؤكد إعجاز القرآن في إيجازه، وفي حقائقه.

إن معنى التدبر فيه خصوصية ليست موجودة في معنى التفسير، إذ هو يختص بالكامن الغامض في الآيات، والمستنبَط منها استنباطاً.

التدبر يحصل بطرق عديدة، وفوائده كثيرة، وتدبُّر كلام الله أفضل ما يشتغل به الإنسان.

كما خَلُص بالتوصيات، وأهمها:

أن تكون هناك دراسة موسعة لآيات القرآن، تعتمد على تدبر كل آية والتعمَّق في بيان معانيها، والخروج بسِفرٍ كبير في التفسير والتدبر، يجد الإنسان فيه بُغْيَتَه، ويَسُدُّ حاجته.

الكلمات المفتاحية: تفسير، تدبُّر، الذكر، حافظون، إعجاز، شُبْهة، إنكار ، دِلالة.

Ibraheem Isa Ibraheem Seidam.

Department of Tafsir (interpretation) and the Qur'anic sciences, Faculty of fundamentals of the Islamic religion, Islamic University, Gzaa, Philistine

Email: isydum@iugaza.edu.ps

Abstract

The present paper seeks to interpret and reflect on verse No. ٩ of Al-Hijr chapter of the Holy Quran which reads "Indeed, it is We who sent down the Qur'an and indeed, We will be its guardian." The paper beings with explaining the meaning of interpretation and reflection, highlighting the principles and benefits of reflecting on Quran. It clarifies the connection between the verse, context and the conditions because of which the verse was sent down. In addition, the paper highlights the disbelievers misconceptions about the message of Prophet Mohammed, their accusing Mohammed of being a madman as well as their denial of the entity which sent down the Quran. The verse eloquently dispels their misconceptions. The study also explains the various meanings of the verse through a general interpretation. It also examines the structural, lexical and semantic aspects of the verse in order to highlight the Quranic miracle.

The study adopts the deductive analytical approach to identify the semantic interpretations and connotations of words and their meanings.

The paper concludes with the following key findings and recommendations.

١. Despite being short, this verse reflects key meanings highlighting clear facts. This emphasizes the Quranic miracle in summarizing facts.

٢. Reflection on Quran carries specific meaning absent from interpretation in that it focuses on the invisible meanings of Quranic verses and the meanings deduced from the same.

٣. Reflection on Quran can be performed in varying ways to achieve different purposes. In addition, reflection on Quran is the optimal way to invest one's time.

The study recommends conducting a comprehensive study of the Quranic verses and a reflection on each verse to highlight the meanings of such verses. This aims to produce a large manuscript on interpretation and reflection on the Quran.

Keywords: reflection, reflection, Quran, guardians, miracle, misconception, denial, connotation

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومَن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن الله تعالى نزَّل كتابه على رسوله ﷺ ليتدبّر الناس آياته ويفهموا معانيها ومراميها، ويغوصوا في أعماقها ليستخرجوا من مكنونها، وكلما تعمّق المفسِّر والمتدبر في الآيات كلما جدّ له من جديد المعاني، ليصل إلى حقيقة يستسلم أمامها، بأن عطاء القرآن كالنبع الصافي الفيّاض، الذي لا ينقطع ماؤه، ولا يتوقف عطاؤه، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ ﴾[الكهف]، ويقول: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧ ﴾ [لقمان]. وقد جاءت هذه الدراسة لتتضمن أنموذجاً لهذا العطاء القرآني المتجدد الذي لا ينقطع، وسَمْتُها بـــ (قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر] تفسير وتدبر)، اجتهدت في استخراج معانيها، والوقوف على مدلولاتها ومراميها، على قدر ما هداني الله إليه، وأعوذ بالله من أن يكون فيها خلل، وأسأله العِصمة من الزلل، فإنه هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أهداف الموضوع:

تهدف هذه الدراسة القرآنية إلى الأمور الآتية :

١ – إظهار سرٍّ من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم في بيانه البديع ونظمه البليغ؛ حيث إن هذه الآية الكريمة جاءت بأدق وأفصح الألفاظ متضمِّنة أصح المعاني في

هذا النَّظم المعجز الكريم، فكان هذا البحث نموذجاً تطبيقياً عملياً للوقوف على إعجاز القرآن في نظمه وبيانه من خلال هذه الآية الكريمة، وحينئذٍ نستشعر معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[الكهف: ١٠٩].

٢ – استثارة الهِمم لتكثيف الدراسات حول الآيات بطريق التدبر المُفضي إلى استخراج مكنونات الألفاظ، وما تحمله من دلالات خفية ومعانٍ صادقة، وتحقيق قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩].

٣ – التعمق في كتاب الله تعالى بالدراسة والنظر والتفكر والتدبر، والإفادة في مجال التدبر بالتقسيم والتبويب العملي للموضوعات المستنبطة من هذه الآية الكريمة.

أهمية الموضوع:

يمثِّل هذا الموضوع جانباً تطبيقياً للون من ألوان التفسير ، هو التفسير التحليلي الذي تُستقصَى فيه المعاني ، ولا شك أن التفسير من أشرف العلوم ؛ لكونه يتعلق بكلام الله تعالى، وهو من العلوم التي لا يمكن الاستغناء عنها في بيان الحِكَم والأحكام والآداب وأسرار الإعجاز، والبحث فيه يحقق أفضل الغايات ، التي منها ما سبقت الإشارة إليه في أهداف هذه الدراسة، مع ما فيه من الأجر والثواب لمن سلك هذا السبيل، هذا بجانب تحقيق الهدف العام الذي من أجله نزل القرآن ، ألا وهو هداية الناس واستقامتهم ، كل هذا مما يدعو إلى الكتابة في مثل هذا المجال من العلم ، والتشوُّق إلى البحث فيه .

سبب اختيار الموضوع:

إن السبب المباشر الذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع تلك النماذج الرائعة التي أجرى الله القرآن على لسانها ؛ أطفالاً وشيوخاً وعجماً ، بل ومَن به إعاقة في نطقه

الثقيل وحركاته غير الرتيبة، فتجد القرآن قد تمكّن من قلوبهم، فحفظوه حفظاً لا يسع الإنسان معه إلا أن يقرَّ بأن القرآن تنزيل من حميد مجيد، وأن هؤلاء الحَفَظة وسيلة يسّرها الله تعالى لحفظ كتابه، فكلما سمعت هذه النماذج ذكرت الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، حتى شدّني ذلك لأن أكتب فيها هذا البحث المتواضع.

هذا بجانب أهمية الموضوع على النحو سالف الذكر، في كشف شئ من أسرار إعجاز القرآن الكريم في إيجازه.

الدراسات السابقة:

كثيرة هي التفاسير التحليلية التي تناولت تفسير القرآن الكريم سورة سورة، وآية آية، أو تناولت تفسير سور بعينها، وقد تناولت تلك التفاسير هذه الآية موضوع البحث، لكن بشئ من الإيجاز، أما أن تكون هناك دراسة متخصصة موسَّعة شاملة معمَّقة، تستند إلى النظر والتدبر والتفكر في هذه الآية الكريمة موضوعَ البحث فإنها غير مسبوقة فيما أعلم، والله أعلم.

حدود الدراسة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي بمعاونة الجانب الاستنباطي في التفسير، وقد بينت ذلك من خلال ما يلي:

١ – عزو الآيات إلى مواضعها في سورها.

٢ – تخريج الأحاديث الواردة في البحث، على أن أكتفي بالصحيحين إن كان الحديث

فيهما أو في أحدهما، فإن لم يرِد خرجته من مظانه، مع نقل حكم العلماء عليه إن وجد.

٣ – إذا قلت: (دلت الآية على ....، وأشارت الآية إلى ...) ونحوها من العبارات فإن مقصدي في ذلك الآية موضوع البحث.

٤ – ربط الموضوع بالواقع ما أتيحت الفرصة لذلك.

خطـــة البحـــث:

يتألف البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

تمهيد: معنى التفسير والتدبر وما يعين على تدبر القرآن وفوائده

المبحث الأول: دراســـة قولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] موقعها ونزولها

المبحث الثاني: المعنى العام لقولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] وتفنيد شبهة المشركين

المبحث الثالث: الدراسة التركيبية لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المراجع

تمهيد

معنى التفسير والتدبر، وما يعين على تدبر القرآن وفوائده

حثّنا الله تعالى على النظر في القرآن الكريم وتدبر آياته، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، وقال في موضع آخر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، وبيّن سبحانه وتعالى أن تدبر القرآن هو أُولَى أوليات إنزاله، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]. ولا شك بأن الذي يتدبر آيات القرآن الكريم سيقف يقيناً على حقائق جمَّة يكتشفها في مكنون الآيات ومضامينها، وما توحي به من معانٍ سامية في مختلف المجالات؛ وحينئذٍ سيَخِرُّ ساجداً أمام عظمة هذا القرآن الكريم ويشهد بإعجازه المبين، وبأنه كلام رب العالمين.

ويحسُن في هذا المقام أن نبدأ بتعريف مصطلحي (التفسير) و(التدبر)، ومن ثَمَّ بيان ما يُعِين على تدبر آيات القرآن الكريم، وأهم فوائده؛ وذلك وفق المطالب الآتية:

أولاً: معنى التفسير والتدبر

معنى التفسير:

في اللغة:

يدور لفظ (التفسير) حول معنى البيان والإيضاح والكشْف، وهو إما أن يكون مشتقاً من الفعل فَسَرَ الشئ يفْسِرُه فسْراً وفسَّره تفسيراً، والفسْر: نظر الطبيب إلى الماء، وكذلك التفسرة، وقيل: التَّفْسِرةُ: الْبَوْلُ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الْمَرَضِ، وَيَنْظُرُ فِيهِ الأَطباء يَسْتَدِلُّونَ بِلَوْنِهِ عَلَى عِلَّةِ الْعَلِيلِ [1]، كأن التفسير طريق للاستنباط والاستدلال،

---

(1) ينظر: تهذيب اللغة ، الهروي أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٧١١ هـ) ، تحقيق : محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي– بيروت ط ١ ، ٢٠٠١م ، (٢٨٢/١٢–٢٨٣)، وكتاب العين،

ووسيلة إليه.

" وقال بعضهم : هو مقلوب من (سفر)، ومعناه: الكشف "[١]، يقالُ: أسْفَر الصُّبْح إذا أضاء، وسَفَرتِ المرأةُ إذا كشفت عن وجهِهَا [٢].

في الاصطلاح :

ذكر العلماء لتفسير القرآن تعريفات اصطلاحية عديدة، أقتصر منها على تعريف أبي حيان –رحمه الله–؛ لما فيه من اجتماع حدود التفسير وعلومه التي يعتمد عليها، حيث قال: " التَّفْسِيرُ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ النُّطْقِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَمَدْلُولَاتِهَا، وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ، وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةُ التَّرْكِيبِ، وَتَتِمَّاتٍ لِذَلِكَ"[٣].

معنى التدبر:

في اللغة:

" الدال والباء والراء: أصل هذا الباب أن جُلَّه في قياس واحد، وهو آخر الشيء

= أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٠هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (٢٤٧/٧-٢٤٨)، ولسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور(ت٧١١هـ)، دار صادر–بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، (٥٥/٥)، والصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين–بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ–١٩٨٧م، (٧٨١/٢).

(١) مباحث في علوم القرآن، القطان، مناع بن خليل(ت١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م، (ص٣١٦).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م، (٤٨٠/٨).

(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف(ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر–بيروت، ١٤٢٠هـ، (٢٦/١).

وخلفه خلاف قُبُله، وتشذ عنه كلمات يسيرة ... ودبَّرت الحديث عن فلان، إذا حدَّثت به عنه، وهو من الباب؛ لأن الآخر المحدِّث يَدبُر الأول يجيء خلفه ... والتدبير: أن يدبِّر الإنسان أمره، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره "[1]، "والدُّبْرُ والدُّبُرُ مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا الظَّهْرُ ... وَقَطَعَ اللَّهُ دَابِرَهُم أَيْ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ... والتَّدْبِيرُ فِي الْأَمْرِ النَّظَرُ إِلَى مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُ، والتَّدَبُّرُ التَّفَكُّرُ فِيهِ "[2]، " واسْتَدْبَرَه: رأَى فِي عَاقِبَتِهِ مَا لَمْ يَرَ فِي صَدْرِهِ؛ وعَرَفَ الأَمْرَ تَدَبُّراً أَي بأَخَرَةٍ "[3].

وحينما يُجعل معنى (الدبر) الخلف أو الظهر ونحوها من المعاني فهذا يعني أن ذلك الشئ الذي في الخلف أو الظهر غير مرئيٍّ أو مُشاهَدٍ أي غير منظور، وبالتالي فإن المتدبِّر يجتهد لرؤيته باستخدام الوسائل المختلفة التي تعينه على ذلك، وهذا يقتضي أن يكون المتدبِّر صاحب عقل ونظر ثاقب، وقدرة على تدبير أمره للوصول إلى رؤية الشئ الخفي والنظر إليه. فكذلك النصوص القرآنية؛ فإنه ينطوي تحتها معانٍ غير المعاني المتبادرة، وإنما يكتشفها المتدبِّرُ بإمعان نظرٍ وإطالة فكرٍ فيها حتى بلوغ الغاية، وكأني بالمتدبر يبقى مع النص حتى يصل إلى أخر ما يصل إليه فقهه وفهمه منه.

وهكذا، فإن هذه المعاني تضع أيدينا على المعنى الاصطلاحي لمصطلح التدبر.

في الاصطلاح:

تحدث ابن عاشور عن معنى التدبر في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، فقال: " التَّدَبُّرُ: التَّفَكُّرُ وَالتَّأَمُّلُ

---

(1) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء(ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، (٣٢٤/٢).

(2) مختار الصحاح، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي(ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م، (ص١٠١)، وينظر، الصحاح، (٦٥٥/٢).

(3) لسان العرب، (٢٧٣/٤).

الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ صَاحِبُهُ مَعْرِفَةَ الْمُرَادِ مِنَ الْمَعَانِي " ثم زاد الكلام إيضاحاً فقال: " وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي كَلَامٍ قَلِيلِ اللَّفْظِ كَثِيرِ الْمَعَانِي الَّتِي أُودِعَتْ فِيهِ، بِحَيْثُ كُلَّمَا ازْدَادَ المتدبر تدبراً انكشفت لَهُ مَعَانٍ لَمْ تَكُنْ بادية لَهُ باديء النَّظَرِ " قال: " دَبَرَ بِوَزْنِ ضَرَبَ، إِذَا تَبِعَ، فَتَدَبَّرَهُ بِمَنْزِلَةِ تَتَبَّعَهُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَتَعَقَّبُ ظَوَاهِرَ الْأَلْفَاظِ لِيَعْلَمَ مَا يَدْبِرُ ظَوَاهِرَهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمَكْنُونَةِ وَالتَّأْوِيلَاتِ اللَّائِقَةِ "[1].

وقال غيره[2]: التدبر: تصرف الْقلب بِالنّظرِ فِي الدَّلَائِل. ويفرِّقون بينه وبين التفكر بأن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب.

بناء على ما سبق يمكن القول بأن تدبر القرآن: هو تتبع ألفاظه وتعميق النظر فيها للوصول إلى مكنون المعاني، وخبايا الألفاظ، بقصد الاعتبار والموعظة.

التدبر والتفسير مرحلتان متعاقبتان:

مما سبق، ومن خلال النظر في أقوال العلماء في معنى التدبر، ندرك أن مصطلح (التدبر) يحتاج إلى نظرٍ عميق في النص، وإعمال العقل والفكر لبلوغ المراد منه.

ويمكن القول بأن التدبر والتفسير مرحلتان متعاقبتان، إذ يلزم للمتدبر تفسير الآية أولاً، ثم الدخول في أعماقها للوصول إلى الغاية والمراد ثانياً، ولا يمكن للثانية أن تحصل

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر(ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤هـ ، (٢٥٢/٢٣).

(2) ينظر الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى(ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش– محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، (٢٨٧)، والتعريفات، الجرجاني، علي بن محمد(ت٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م، (٥٤)، ودستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية لبنان–بيروت، ط١، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م، (١٩٤/١).

دون المرور بالأولى، فالمرحلة الأولى هي التفسير، والمرحلة الثانية هي التدبر.

يقول الإمام الطبري –رحمه الله–: " وفي حَثِّ الله عز وجلّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر] وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه– ما يدلّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيِهِ.

لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام – إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به. فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل "[1].

وقد أوجز الشوكاني في ذلك فقال: " وَالتَّدَبُّرُ لَا يُتَصَوَّرُ بِدُونِ الْوُقُوفِ عَلَى الْمَعْنَى "[2].

ولذلك نؤكد بأن التفسير والتدبر مرحلتان متعاقبتان، ولن يصل المتدبر إلى المقصود البعيد من الآية إلا بالمرور بمرحلة التفسير، والله أعلم.

ثانياً: مما يُعِينُ على التَّدبُّر

حين نقرأ قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢، محمد:٢٤]

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير(ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م، (٨٢/١).

(2) فتح القدير، الشوكاني، محمد بن علي(ت١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب–دمشق–بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، (٥٦١/١).

ندرك بأن التدبر ليس أمراً صعباً أو ضرباً من المستحيل، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فحين كلّف الله المسلم بتدبر آياته كان تكليفه له بما هو في وُسعِه ومقدوره، وبناءً عليه فإن سبيل الوصول إلى التدبر تحتاج من المتدبِّر إلى مزيد اجتهادٍ وإعمال فكرٍ ونظرٍ وتأملٍ في آيات القرآن، وكلما زادت دائرة الوسائل اتسعت دائرة التدبر، ويمكن الوقوف على ما يعين على تدبر الآيات – حسب ما يتطلّبه البحث فيها – من خلال الآتي:

١ – الرجوع إلى نظائر اللفظ، وإيجاد الفرق بينه وبين نظائره من حيث دلالته في كل سياق ورد فيه، فلفظة (الكتاب) مثلاً تأتي بمعنى القرآن والتوراة والإنجيل وجنس الكتاب إلى غيرها من المعاني، والوقوف على السياق له دور كبير في تحديد المعنى. ومما يعين على الوقوف على نظائر اللفظ تلك المصنفات المؤلفة في هذا العلم، ككتاب (الوجوه والنظائر) لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، و(إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) للدامغاني (ت٤٧٨هـ) ، و(نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر) لابن الجوزي (ت٧٩٥هـ)، و(كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر) لابن العماد (ت٨٨٧هـ).

٢ – الوقوف على الفروق بين الألفاظ المترادفة: حيث إن اللفظ في الآية – كي نقف على معناه ودلالاته في السياق – لا بد من بيان الحِكمة من استعماله دون غيره من الألفاظ التي ترادفه، ككلمة (الحمد) مثلاً في أول الفاتحة، نتساءل: ما الحكمة في استعمالها دون لفظ الشكر مثلاً أو الثناء؟ وما الفرق بينها وبين تلك الألفاظ المرادفة لها؟ ولو وضعنا مرادفها مكانها أيسدُّ مسدها؟... ونحوها من تلك التساؤلات. ومن الكتب التي تعين على الوقوف على بيان أوجه الافتراق بين المترادفات كتاب (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، وكتاب (الكليات) لأبي البقاء الكفوي (ت١٠٩٤هـ).

٣ – عِلْم البيان وأساليبه؛ من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وحقيقة ومجاز ونحوها،

وكذلك علم المناسبات؛ بين الآية وفاصلتها، وبين الآية وجارتها، وبين السورة والسورة؛ فإن ذلك يوقفنا على عُمْق المعنى، ودلالة الاستعمال. ومن الكتب التي تعين على ذلك كتب علوم القرآن؛ مثل كتاب البرهان للزركشي (ت٧٩٤هـ)، والإتقان للسيوطي (ت٩١١هـ)، وكذلك كتب التفسير التي تهتم بالناحية البلاغية واللغوية؛ كتفسير البحر المحيط لأبي حيان (ت٧٤٥هـ)، وروح المعاني للآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، وأيضاً كتب البلاغة.

٤ – الرجوع إلى معاجم اللغة، والوقوف على تصريفات اللفظة، فإن ذلك يوقفنا على وجوه المعاني المختلفة التي يحتملها اللفظ، فربما احتمل السياق جميع هذه المعاني، وربما احتمل بعضها. وأوسع كتب المعاجم في ذلك لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ)، ومن أدقِّها معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت٣٩٥هـ).

٥ – السياق الذي وردت فيه اللفظة، فإن للسياق أهمية كبيرة في تحديد المراد من اللفظ، فقد يُراد به المعنى الحقيقي، وقد يُراد به المعنى المجازي، وقد يحتمل اللفظ معانٍ عديدة يكون للسياق الفضل في إرادة إحداها؛ مثل لفظة (الهدى) فقد قال ابن الجوزي: " ذكر بعض الْمُفَسّرين أَن الْهدى فِي الْقُرْآن على أَرْبَعَة وَعشْرين وَجهاً "[1]، والذي يحدد كل معنى من هذه المعاني هو السياق.

٦ – مدارسة القرآن، فإن مدارسته مع الآخرين تفتح آفاقاً جديدة لمعانٍ خفية غائبة عن المتدبِّر فيما لو استغنى بنفسه عن إخوانه، ففي الحديث: « ... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، أبو الفرج، ابن الجوزي(ت، تحقي٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة – لبنان–بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م، (ص٦٢٦).

السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ... »[١]، والمدارسة مفاعلة، لا تقع من طرف واحد، وإنما تقتضي المشاركة، ويستلزم معناها الوقوف على كل كلمة وحرف، وأسرار الترتيب والتركيب، وما إلى ذلك مما خفي من معنى الآية، وهو مما يفيده معنى المدارسة. قال في مرقاة المفاتيح: " التَّدارُس قراءة بعضهم على بعض تصحيحاً لألفاظه أو كشفاً لمعانيه ... " إلى أن يقول: " والأظهر أنه شامل لجميع ما يُناطُ بالقرآن من التعليم والتعلُّم "[٢].

٧ - وليس مكان المدارسة قاصراً على المسجد فقط، قال الإمام النووي –رحمه الله–:" ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماع في مدرسةٍ ورباطٍ ونحوهما إن شاء الله تعالى، ويدل عليه الحديث الذى بعده [٣] فإنه مطلق يتناول جميع المواضع، ويكون التقييد في الحديث الأول خرج على الغالب لا سيما في ذلك الزمان، فلا يكون له مفهوم يعمل به "[٤].

٨ - الواقع وبيان أثره على المعنى الذي دلت عليه اللفظة، فقد أخرج الطبراني في الأوسط عن أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قُلْتُ: أَيُّ جَمْعٍ هَذَا؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَبِيَدِهِ السَّيْفُ مُصْلِتًا [٥]، وَهُوَ يَقُولُ: « ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

---

(١) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج(ت٢٦١هـ)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم (٢٦٩٩)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (٤/٢٠٧٤).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن الهروي، علي بن (سلطان) محمد(ت١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت–لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م، (١/٢٨٧).

(٣) ينظر حديث رقم (٢٧٠٠)، التخريج السابق نفسه.

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين النووي(ت٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي–بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، (١٧/٢٢).

(٥) أصلت السيف: جرَّده من غمده. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك

ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] »"[1]، فقد خفي معنى الآية على عمر ﷺ، واستمر ذلك لسنوات، فلما وقعت غزوة بدر الكبرى ورأى ما رأى فهم معناها.

٩ – صفاء الذهن، وخلوه من منغِّصات الحياة، فإن مشكلات الحياة تشوش على الفكر والعقل، فتعيقه عن الوصول إلى أعماق الآيات.

ثالثاً: من فوائد تدبر القرآن وحِكَمه

أمر الله تعالى بتدبر القرآن الكريم، وذلك لتحقيق فوائد عظيمة، وحِكَمٍ جليلة، أهمها:

١ – إن المتدبِّر لآيات القرآن الكريم يقي نفسه من الدخول في النكير الشديد الوارد في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء]، قال الشيخ القاسمي في معنى الآية: " ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان، ليعلموا كونه من عنده تعالى ... "[2].

٢ – كما أنه بالتدبر يُشغل المسلم نفسه بالبحث في أجلّ الكتب، بالنظر والتفكر فيه، وهو أفضل ما يُفني فيه الإنسان عمره.

٣ – فهم القرآن الكريم فهماً دقيقاً معمَّقاً وصحيحاً؛ فيفهمه المتدبِّرُ مقصداً وأهدافاً،

= بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي–محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية–بيروت، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م، (٤٥/٣).

(١) المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد(ت٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين–القاهرة، (١٤٥/٤).

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه–بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، (٢٣٣/٣).

مبادئ وقِيَماً، آداباً وأخلاقاً، توجيهاً وإرشاداً، روحاً ونوراً، علماً وعملاً، تحدياً وإعجازاً، يفهمه دستوراً يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام.

٤ – يزيد من إيمان المسلم وثقته بهذا القرآن الكريم وسلامته من التحريف والتغيير، ويُشعر بسعادةٍ في النفس غامرة، فحين يتوصّل المتدبِّرُ إلى معنى من المعاني العميقة في الآية فإنه ينتابه شعور وإحساسٌ بأنه قد تحصَّل على وجبة دسِمة من العلم بكتاب الله تعالى وفهمه، وبأنه كشف عن شئ من مكنونات هذا الكتاب المعجزِ وسرٍّ من أسراره الكامنة، حينئذٍ يمتلئ قلبه طمأنينة ورضاً وتسليماً.

٥ – بالتدبر تتفتح مغاليق تلك القلوب المقفلة، وتستبصرِ تلك العيون المغمِضة، وتلين تلك العقول الجامدة، لتتعرّف على خالقها وبارئها من خلال آيات كتابه الداعية إلى النظر في نواميس الكون وآلائه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

٦ – يظهر به إعجاز القرآن الكريم، وكونه كلام الله تعالى، ودحض شُبَه المغرِضين والمشككين الذين زعموا أن القرآن الكريم كلام بشر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

فهذه جملة من فوائد التدبر وحِكَمِه، وهي في مجموعها تخدم الهدف الأسمى الذي يطمح إليه كل مسلم، وهو الوصول إلى السعادة في الدارين.

وبعد هذا التمهيد الذي بيَّنَ معنى تدبر كلام الله تعالى وما يُعين عليه، وكشف عن أهمية علم التدبر، نقف وقفة تفصيلية مع تفسير وتدبر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

المبحث الأول

دراسة قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ موقعها ونزولها

ستكون دراسة الآية الكريمة من خلال الآتي:

المطلب الأول : تعريف وجيز بسورة الحجر:

هذه الآية الكريمة من سورة الحِجر، وسورة الحِجْر مكية باتفاق [١]، وتُعدُّ السورة الخامسة عشر في ترتيب المصحف. وعدد آياتها تسع وتسعون باتفاق العادِّين، وقد سُمِيت (سورة الحِجْر)، ولا يُعرَف لها اسم غيره، ووجه التسمية أن اسم الحِجْر لم يُذكَر في غيرها [٢].

المطلب الثاني: علاقة الآية في سورتها مع السابق واللاحق من السور (٣):

هذه الآية الكريمة هي الآية التاسعة من سورة الحجر، وفيها من التوكيد ما فيها على أن القرآن تنزيلٌ من الله، وأنه محوطٌ برعايته ، محفوظٌ من أن تعبث به أيدي العابثين. وقد خُتِمَت سورة الحِجْر بالحديث عن تأكيد نزول القرآن من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر]، وبتوعُّدِ

---

(١) انظر لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، أبو الحسن علاء الدين علي(ت٧٤١هـ)، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية–بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، (٤٧/٣)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه–بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، (٢٠٧/٤). وأكثر المفسرين ذكروا أنها مكية ولم يذكروا استثناءً. وقد استثنى الماوردي في تفسيره والزمخشري والفخر الرازي الآية السابعة والثمانين منها ولم يذكروا عليها دليلاً، وهذه المسألة مما لا يثبت إلا بدليل، إضافة إلى أنها مخالفة لما عليه جمهرة العلماء.

(٢) التحرير والتنوير، (٥/١٤–٦).

(٣) سيكون تركيز المناسبة من جهة هذه الآية موضوع البحث دون النظر إلى غيرها من الجهات الأخرى؛ لئلا يطول البحث، وإقحام ما ليس منه فيه.

المشركين والمفترين بالعذاب الشديد بسبب فِرْيَتهم بوصفهم القرآن تارة بأنه سِحر وثانية بأنه شِعر وثالثة بأنه كهانة وغيرها من الافتراءات، ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحِجْر].

ارتباط الآية بالسورة التي قبلها:

السورة التي تسبق سورة الحِجر هي سورة إبراهيم، التي افتُتِحت بقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]، وهي تبيِّن أن القرآن الكريم تنزيلٌ من الله تعالى إلى محمد ﷺ، وأن مقصده الأسمى هو هداية الناس إلى الحق. وقد ختم الله تعالى السورة بقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم]، ففي القرآن كفاية في التذكير والموعظة، لِيُنصَحوا ويُنذَروا به [1]، وهذه الآيات تعاضد ما في سورة الحجر، التي افتتحت بآية مشابهة لما افتُتِحت به سورة إبراهيم، ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [الحجر]، ثم بعد ذلك أتبعها بالآية الكريمة موضوع البحث التي تبيِّن حفظ الله تعالى لكتابه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

ارتباط الآية بالسورة التي بعدها:

السورة التي تسبق سورة الحجر هي سورة النحل، وقد ورد فيها قوله تعالى:

---

(1) انظر تفسير البيضاوي، (٣/٢٠٤)، هذا، وقد فُسِّر اسم الإشارة بتفسيرات عديدة، قال الإمام البيضاوي : " (هذا) إشارة إلى القرآن أو السورة أو ما فيه العظة والتذكير أو ما وصفه من قوله: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ ".

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل]، وهو ظاهرٌ في تماديهم في الكفر والإنكار، وبلوغ الغاية في الجحود والاستكبار، فقد قالوا ذلك تهكُّماً، قيل: إن القائلين ذلك هم المقتسمون [1].

وقد بيَّن سبحانه في مواضع ثلاثة من سورة النحل أنه أنزل الكتاب ليبين لهم ما فيه صلاحهم وسعادتهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل]. وذكر سبحانه أن من حكمة نزول القرآن تثبيت المؤمنين بجانب هدايتهم وتبشيرهم بما يَسُرُّهم، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل].

فالآيات جميعها من السور التي سبقت سورة الحجر والتي بعدها، تتفق في وحدة الهدف وتحقيق الغاية التي هي الهداية، ويؤيِّد بعضها بعضاً في أن القرآن الكريم تنزيلٌ من حكيم حميد.

المطلب الثالث: مناسبة الآية مع السياق:

تأتي هذه الآية الكريمة ضمن مجموعة من الآيات في صدر سورة الحجر، وسياق الآيات عن مجادلة المشركين حول سخريتهم وإنكارهم للقرآن ، واتهامهم لرسول الإسلام ﷺ بالجنون، والرد عليهم بالحجة والبرهان، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر] ، ووجه التناسب بينهما واضحٌ بَيِّنٌ، وهو قائم على شبهة وردٍّ ودليل؛ وذلك أنهم " لما قالوا على سبيل الاستهزاء : ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ ردَّ عَلَيْهِمْ بأنه هو الْمُنَزِّلُ عليه، فليس

---

(1) انظر تفسير البيضاوي، (٣/٢٢٤).

من قبْلِه ولا أحد، بل هو الله تعالى الذي بعث به جبريلَ عليه السلام إلى رسوله ﷺ "[١]، ثم " جعل قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ دليلاً على أنه متزّلٌ من عنده سبحانه وتعالى آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه " [٢].

وهذا يأتي ضمن طريقة القرآن الكريم في الحِجاج والاحتجاج، وتسلسلها المنطقي في إقناع الخصوم، والرد على شبَههِم، وسيأتي له مزيد بيان إن شاء الله.

ثم جاءت التسلية للنبي ﷺ بأنه ليس وحده من كُذِّب واستُهزئ به وأوذي في الله، بل قد سبقه رسل كثير، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجر]، وعلاقة هذه الآيات بسابقاتها كما قال أبو حيان: : " لما ذكر تعالى استهزاء الكفار به عليه السلام، ونسبتَه إلى الجنون، واقتراح نزول الملائكة، سلاَّه تعالى بأنَّ مَن أُرسِل من قَبلك كان ديدن الرُّسل إليهم مثل ديدن هؤلاء معك "[٣].

فهذه لمحة سريعة حول موضع هذه الآية في سورتها وعلاقتها بسياقها الذي وردت فيه؛ ليتبين لنا أن موضعها في هذا السياق كان باختيار وحكمة.

---

(١) البحر المحيط، (٦/٤٧٦٧-٤٦٨).

(٢) الكشاف، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط ٣، ١٤٠٧هـ، (٢/٥٧٢) بتصرف يسير. الكلام هنا محمول على أن الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على الذكر، وهي مسألة خلافية سيأتي ذكرها –إن شاء الله–.

(٣) البحر المحيط، (٦/٤٦٨).

المبحث الثاني

المعنى العام لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

وتفنيد شبهة المشركين

المطلب الأول: المعنى العام للآية:

أطبق المفسرون على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ على المشركين في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر]، والمراد بالذِّكر القرآن الكريم، أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فلا يستطيع إبليس ولا غيره أن يبدل فيه أو يغيِّر، أو يزيد أو يُنقِص، أو أن يتطرق إليه خللٌ كما جرى في سائر الكتب المنزلة.

وقيل: إن الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ يعود على محمدٍ ﷺ، وإن لم يجرِ له ذِكْرٌ، أي يحفظه ﷺ من أذى مَن أراد به سوءاً، ويحُوطُه من مكرهم. وأكثر المفسرين ذكروا هذا القول بصيغة التضعيف (قيل) ويرجحون عوده على ﴿ٱلذِّكْرَ﴾؛ لأنه المصرَّح به في الآية، ولأنه أَلْيَق بالسياق [1]، قال صاحب (بيان المعاني): " وإن سياق الآية يأبى عود الضمير إليه ﷺ، بل عوده لأقرب مذكور، وهو الذِّكْر أوجب وأصح وأشهر "[2]. هذا ما تميل

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي(ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، (٥٢٥/٢)، والبحر المحيط، (٤٦٧/٦-٤٦٨)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر(ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي–بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، (٢٠٧/٣)، وينظر غيرهم من المفسرين.

(2) بيان المعاني، العاني، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي(ت١٣٩٨هـ)، مطبعة الترقي – دمشق، ط١، ١٣٨٢هـ-١٩٦٥م، (٢٧٦/٣).

إليه النفس، فإن عَوْد الضمير على المذكور الأقرب أُولى، والمذكور الأقرب هنا هو الذِّكْر، هذا بجانب كون النبي ﷺ قد انتهت حياته بختم رسالته، ثم قبضه الله إليه، وهذا يتنافى مع ما دل عليه مفهوم الحفظ الوارد في الآية، اللهم إلا أن يُتَأوَّل حفظه ﷺ بحفظ سيرته، وحينئذ لا يخلو ذلك التأويل من تكلُّف، فيبقى الأولى والأقوى أن لا يُترَك الواضح الجلي ثم يُعدَل إلى غيره، والله أعلى وأعلم .

المطلب الثاني : تفنيد شبهة المشركين وقوة الرد:

إن الآيات الثلاث التي سبقت هذه الآية تحمل في فحواها إنكاراً شديداً لرسالة محمد ﷺ، وهذا الإنكار ظهر من خلال جهات ثلاث:

١ – إنكار الجِهة المنزِّلة للذكر.

٢ – اتهامه ﷺ بالجنون.

٣ – السخرية والتهكم.

الجهة الأولى: إنكار الجهة المنزِّلة للذكر:

لم يُقِرّ المشركون بأن الذي نزّل القرآن هو الله، بل قالوا: (نُزِّل) بصيغة المجهول؛ ويتأكد ذلك عند قراءتنا لمواقفهم في المواضع المتفرقة من القرآن الكريم، حيث قالوا عن الرسول ﷺ: (تقوَّله)، وقالوا: (سحر) و(شعر) وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان]، وقالوا غير ذلك، وهذا يتضمن في طياته تهمة للنبي ﷺ بأنه مفترٍ متقوِّلٍ على الله، كاذب فيما يدَّعي، وهذا دليلهم الأول على إنكار الرسالة.

الجهة الثانية: اتهامه ﷺ بالجنون :

وهو اتهام صريح يؤكّدون فيه أنه ﷺ مصاب بالجنون، وفي فحوى هذا الاتهام إنكار للرسالة؛ فإن الرسول –أيّ رسول– لا بد أن يكون عاقلاً، وقد اختلت هذه

الصفة في محمد ﷺ –على حد زعمهم وافترائهم –؛ إذن فليس هو برسول. وقد أكّدوا هذا الاتهام بقولهم ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، فلم يقولوا: أنت مجنون؛ لأنهم أرادوا تَحقُّق هذه الصفة فيه ﷺ، ثم هم لم يقولوا: إنك جُنِنْتَ؛ لأنها محتملة لزوال هذه الصفة عنه ﷺ، وإنما أرادوا جعْلَ هذه الصفة ملتصقة به ثابتة فيه دائمة بلا انقطاع، فقالوا: مجنون بصيغة اسم المفعول .

الجهة الثالثة: السخرية والتهكم:

فإن طريقة خطابهم له ﷺ ونداءهم عليه بقولهم : ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر:٦]، مع ما اقترن به من قرائن، يدل على سخريتهم وتهكمهم به ﷺ، ليس سخريةً من شخصه وذاته، وإنما لأنه ادعى الرسالة، إذ لم يُعلَم أنهم تهكّموا به أو سخروا منه ﷺ قبل بعثته، بل وقع منهم خلاف ذلك تماماً، حيث مدحوه ونعتوه بالصدق والأمانة، فالسبب الأساس إذن هو الرسالة. فيضاف هذا أيضاً دليلاً على إنكارهم للرسالة مع الدليلين السابقين.

وكأنّي والصورة أنّا أمام قضية – مدعِي، ومدعًى عليه، ومحلاً للدعوة–؛ فأما المدعي فهم المشركون، وأما المدعى عليه فهو محمدٌ رسول الله ﷺ، وأما محل الدعوة فهو الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ وكتابه المتزّل عليه، قدَّم المشركون –المدّعون– أدلتهم على نقض الرسالة، ومن ثَمّ طلبوا دليلاً لصحة هذه الرسالة بقولهم: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، ولا شك أن تقدُّم الدليل –سيما إذا كان محض افتراء وكذب– على طلب الدليل من الخصم يعتبر خطأً في الترافع في الدعوى؛ لأن الرسول ﷺ ادعى الرسالة، فالمطلوب في هذه الحالة أن يطلبوا منه دليلاً على صدقه فيما جاء به؛ فإن جاءهم بالدليل صدّقوه، هذه هي الصورة المنطقية والصحيحة في الدعاوى، أما الذي حدث هنا أن المشركين رفضوا محل الدعوى –الرسالة– معتذرين بالأدلة التي ذكروها، ثم بعد ذلك طلبوا منه الدليل والبرهان، وهذا في عرف القضاء خطأ، بل هو

منطق أعوج. لكن الآيات تماشت مع هذه الدعوى، واعتبرت أن مقالة المشركين تلك – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦﴾ – محلّ ادعاءٍ، ثم تقدمت لهم بالرد على هذه الدعوى، من وجوه:

الأول: إنكارهم للجهة المنزِّلة للذكر، والذي يعني أن محمداً ﷺ تقوّل القرآن واختلقه وافتراه .. وما إلى ذلك من التُّهَم، فقد ردّت الآية الكريمة عليهم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ ، أي : نحن ليس غيرنا ، أي أن الجهة المنزِّلة للذكر هـــو الله العلي الأعلى ، تلك الجهة التي أنكروها ولم يعترفوا بها ، حتى قالوا : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر] بصيغة المجهول .

الثاني: اتهامه ﷺ بالجنون: فحْواه أنه ليس محلاً أو أهلاً للرسالة التي من أخص خصائصها إنزال الذكر عليه، فردَّ عليهم بقوله: ﴿نَزَّلۡنَا﴾، وهو فعل يقتضي منزِّلاً ومنَزَّلاً عليه؛ فأما منزِّل الذكر فهو الله ﷻ، وأما المنَزَّل عليه فهو محمد ﷺ النبي الرسول الذي اتهموه بالجنون، وهل يُعقَل أن الله تعالى يُكلِّف برسالته مجنوناً؟ إن الرسالة تكليف، وإذا كان التكليف الخفيف لا يُكلَّف به المجنون، فكيف إذا كان التكليف بالرسالة؟! فدلَّ ذلك على أنه ﷺ ليس بمجنون –كما زعموا وادَّعَوْا–.

الثالث: السخرية والتهكم: فإن الله تعالى رد عليهم في سخريتهم وتهكمهم واستهزائهم به ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ بنون العظمة، التي تدل على تفخيم وتعظيم المنزِّل، فالمقام مقام عظمة وجلال، لا مقام هزل وسخرية، وهل يكون الهزل والسخرية في مقام حديثٍ عن رسالة –بكل ما تعنيه هذه الكلمة–؟!

الرابع: أنهم لما طلبوا الدليل على صِدقِه ﷺ، فقالوا: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ [الحجر] ، ثم أردف مقالتهم تلك ببيان وجه الحِكْمة في عدم

استجابة طلبهم بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر]، أتاهم ها هنا بما هو أفضل مما طلبوا؛ لأن ما طلبوا إنزاله يستوجب عليهم نزول العذاب إن هم كذَّبوا، فكان أفضل لهم أن أنزل إليهم الذِّكر، وجعله محفوظاً إلى ما شاء الله، ليظل حفْظُه آية دالة على صدق رسالته ﷺ لكل جيل من الأجيال، ولكل أمة من الأمم عبْر الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال الإمام النسفي – رحمه الله – : " وقد جعل قوله ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ دليلاً على أنه متزَّل من عنده آية، إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه "[1]، فكأنه لو كان من كلام البشر لما كان آية، ولما كان محفوظاً كذلك، فدل حفظه على أنه آية دالة على صدقه ﷺ، ودليلاً يردّ به على ما طلبوا من إنزال الملائكة.

وهكذا ، بهذا الإيجاز البليغ ، وبهذه القوة في الأسلوب يَرُدُّ الله تعالى على شُبهة المشركين، واتهامهم لنبيه ﷺ بالجنون ، وسخريتهم منه .

---

(1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد(ت٧١٠هـ)، تحقيق وتخريج أحاديث: يوسف علي بديوي، مراجعة وتقديم: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب–بيروت، ط١، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، (١٨٤/٢).

المبحث الثالث

الدراسة التركيبية لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾

هذه آية من آيات القرآن الكريم العظيمة، تحمل دلالات واسعة، وتحتوي معانٍ رائعة، وفيها من الإعجاز ما يستوجب الوقوف عليها وتدبُّرها، وتجلية معانيها.

إن طريقةَ التركيب لكل جملة، ودقةَ اختيار اللفظ وتأليفه في كلام الله تختلف عنها في كلام البشر، فإن كلام الله تعالى كامل من كل وجه. وإن هذه الآية –موضوع البحث– لهي نموذج حيّ لبلاغة القرآن وإعجازه، وعطائه الذي لا ينقطع.

وهذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] تتركب من جملتين، وكلماتها سبع، وحروفها ثمانية وعشرون حرفاً إذا استثنينا همزة الوصل، وكل جملة من الجملتين تحمل دلالات ومعانٍ واسعة في مجالات مختلفة، يمكن دراستها والوقوف عليها – بحسب هداية الباري سبحانه– على النحو التالي:

المطلب الأول: دلالات صوتية:

مما تحمله الآية الكريمة من دلالات صوتية:

الجملة الأولى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾:

هذه الجملة فيها ثلاثةُ حروف مشددة وثلاثةٌ أخرى ساكنة، وهي أربعُ كلمات، وخمسة عشر حرفاً، وحروف التشديد عبارة عن حرفين أولهما ساكن مدغَمٌ في الثاني، فيكون عدد الحروف السواكن مجتمعة ستة أحرف، وتأثير السكون في الجملة أشبهه –مع الفارق– بالحواجز على الطرقات، حيث يكون التمهل والترسُّل والبُطْء عند تعدِّيها، وكذا السكون عند النطق به، فإن المتلفِّظ بالكلمة يكون في غاية التمهُّل والتباطؤ، وهذا ما يحدث في هذه الجملة من الآية الكريمة، فإن قارئها يشعر بتلك المَهَلَة والبطء، فما الحِكْمَة في ذلك؟

إن القرآن الكريم نزل على فترات متقطِّعة، فقد كان ينزل نجوماً، حيث ينزل جبريل عليه السلام بالآية أو الآيات، ثم ينقطع مدة من الزمن –قليلة كانت أو كثيرة– ثم ينزل بآية أو آيات أُخَر، ثم ينقطع ... وهكذا استمر نزول القرآن نجوماً بهذه الصورة حتى اكتمل بعد نيِّفٍ وعشرين سنة. فدلالة السكون في الجملة تتناسب وتتناغم مع تباطؤ الوحي وتقطُّع نزوله بالقرآن ، وهو ما دل عليه قوله في الآية: ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ، وصرّحت به آية الإسراء : ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء] .

الجملة الثانية: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ :

هذه الجملة فيها أربعة حروف مد (الألف في « إنا » وواو الصلة في « له » والألف والواو في « لحافظون »، وهي ثلاثة كلمات، وثلاثة عشر حرفاً، ولا نجد فيها تلك السواكن كما في الجملة الأولى إلا ساكناً واحداً في ﴿ إِنَّا ﴾، بل نجد السهولة والليونة مع هذه الكلمات التي فيها حروف المد، بجانب المط والإطالة الناتجة عن تلك الحروف، فما الحِكْمَة من ذلك؟

إن الله تعالى قضى بحفظ كتابه –القرآن الكريم– من أن تعبث به أيدي العابثين، أو أن ينال منه أحدٌ بزيادة فيه أو إنقاصٍ منه أو تعديلٍ عليه، أو استدراك أو نحو ذلك، وهذا الحفظ كان وما زال، ولن يزال إلى أبد الآباد، مُدَداً طويلة تمتد إلى ما شاء الله، وهذا المعنى تُشْعِر به المدود في هذه الجملة، فإن من معاني المدِّ: المطُّ والإطالة، حيث لا ينقطع الصوت مع حرف المد إلا بانقطاع الهواء، فالصوت معه ممتدّ، وتسمى حروف المد أيضاً (مد ولين)؛ لما فيها من السهولة والليونة عند خروجها، وكذا حفظ القرآن الكريم، لا مشقة في حفظه، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، وهذا الحفظ ممتدّ إلى ما شاء الله تعالى، فهذه المعاني تتناسب وتتناغم مع جوِّ الجملة وروحِها. والله أعلم.

المطلب الثاني : المؤكِّدات في الآية :

تضمنت الآية عدداً من المؤكِّدات، وهي على النحو الآتي:

١ – (إنّ) في الجملة الأولى:

وقد وردت في الآية مرتين، واستعمالها هنا جاء للتأكيد، وهو الأصل. قال الإمام الجرجاني –رحمه الله–: " ثم إنَّ الأَصْلَ الذي ينبغي أن يكونَ عليه البناءُ هو الذي دُوِّنَ في الكتبِ من أنها –أي: إن– للتأكيدِ. وإذا كانَ قد ثَبتَ ذلك فإذا كان الخبرُ بأمرٍ ليس للمخاطب ظنٌّ في خِلافهِ البتَّةَ ولا يكونُ قد عَقَد في نفسهِ أن الذي تزعمُ أنَّه كائنٌ غيرُ كائنٍ وأنَّ الذي تزعمُ أنه لم يكنْ كائِنٌ فأنتَ لا تحتاجُ هناك إلى " إنّ " وإنما تحتاجُ إليها إذا كَان له ظنٌّ في الخلافِ وعَقْدُ قلبٍ على نفيِ ما تُثْبِتُ أو إثباتِ ما تَنْفي "[1]، وإذا نظرنا إلى ما سبق هذه الآية سنجد أنه إنكارٌ من المشركين للرسالة –كما سبق بيانه–، فاستلزم ذلك أن يؤتى بمؤكِّدات تصدَّرها (إنّ)، التي لها حق الصدارة في الجملة.

٢ – التوكيد بالضمير (نحن):

وهي المؤكِّد الثاني في الجملة الأولى من الآية الكريمة، وقد أُعرِبت بإعرابين:

أحدهما: أنها مبتدأ خبرها الجملة الفعلية (نزّلْنا)، وهي وخبرها في موضع رفع خبر إنَّ.

والآخر: أنها في محل نصب توكيد لاسم إنَّ [2].

فأما الوجه الأول فيكون تقديمها لإفادة الحصر؛ أي: نحن نزلنا الذكر لا غيرنا، فهو ينفي أن تكون هناك جهة منزّلة للقرآن سوى جهة واحدة، وهي جهة العليِّ الأعلى

---

(1) دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن(ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة–دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ–١٩٩٢م، (ص٣٢٥).

(2) ينظر: البحر المحيط، (٤٦٨/٦).

سبحانه.

وأما على الوجه الآخر فإنها تؤكِّد ضمير العظمة في (إنَّا)، ويكون فيها من التشريف والتكريم والتعظيم والتفخيم ما لا يخفى.

أضف إلى ذلك أن الضمير العائد إلى الله العليِّ العظيم قد تكرر في هذه الجملة ثلاث مرات: أولها في قوله: ﴿إِنَّا﴾. ثانيها قوله: ﴿نَحْنُ﴾. وثالثها في قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾، وتكراره يفيد التوكيد بلا شك.

كل هذه المعاني تلقي بظلال الهيبة في النفوس، وتبعث على الخضوع والإذعان والاعتراف بمنزِّل الكتاب، والإقرار برسالة مَنْ أُنزِل عليه، وهو الأنسب بالمقام مقابل تلك السخرية والاستهزاء الواقعَيْن من المشركين.

٣ – (إنَّ) في الجملة الثانية:

تكرر ذِكْرُ (إن) في صدر الجملة الثانية من الآية الكريمة، وكان يُمكِن أن يُقال: بأنه يمكن الاستغناء عن ذكرها مرة ثانية، ويكون تركيب الجملة هكذا: إنا نحن نزلنا الذكر وله حافظون، بعطف الجملة الثانية على الأولى، فما الحكمة إذن من ذِكْرها مرة ثانية؟

إن العطف يقتضي المغايرة، فما ذُكِر بعده يختلف في حُكمه وما تناوله عمَّا سبقه، وهنا في الآية ذَكَر قضيتين مختلفتين؛ الأولى تتحدث عن أن منزِّل الذكر هو الله تعالى وليس أحد غيره، وفي الجملة الثانية ذكر قضية أخرى مختلفة عن الأولى؛ فهو يحدِّثنا عن حفظ القرآن الكريم على الدوام، ومعلوم أن كلتا القضيتين من الأشياء التي هي محل إنكار عند المشركين، فاقتضى أن يُعاد ذكر (إن) مرة أخرى؛ لتأكيد كل قضية أنكرها المشركون منفصلة عن الأخرى .

٤ – الحصر في تقديم الجار والمجرور ﴿ لَهُۥ ﴾:

جاء في سياق الجملة الثانية من الآية الكريمة تقديم الجار والمجرور –﴿ لَهُۥ ﴾– المتعلِّق بخبر إنَّ، وهو: ﴿ لَحَٰفِظُونَ ﴾، ولسائلٍ أن يسأل: لِمَ لَمْ يستغنِ عن الجار والمجرور فيقل: وإنّا لحافظوه، والمعنى يتأدَّى بها؟

إن إثبات الجار والمجرور –﴿ لَهُۥ ﴾– وتقديمه على متعلَّقِهِ –﴿ لَحَٰفِظُونَ ﴾– له فوائد وحِكَم، أهمها: أنه يفيد الحصر، حيث يتأكد حصر الحفظ وقصره على القرآن الكريم –الذكر–، أما غيره من الكتب المنزَّلة على الأنبياء السابقين فلم يتعهَّدِ الله بحفظها، لذا وقع فيها التحريف والتبديل، أما القرآن فهو مصونٌ محفوظٌ. جاء في تفسير الإمام الرازي " أن أحداً لو حاول تغييره بحرفٍ أو نقطةٍ لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى، حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له لحنٌ أو هفوةٌ في حرفٍ من كتاب الله تعالى لقال له كل الصِّبيان: أخطأت أيها الشيخ، وصوابه كذا وكذا "[1]، وهذا لا يتسنى لغيره من الكتب.

ولو قال: وإنّا لحافظوه، لكان المعنى: تحقيق حفظ القرآن من غير أن يتعرض لغيره من الكتب، فكان لتقديم الجار والمجرور تحقيق غرضين:

أولهما: إثبات حفظ القرآن الكريم بكافة وجوه الحفظ.

ثانيهما: الإشارة إلى وقوع التحريف والتغيير في غيره من الكتب السابقة.

أضف إلى ذلك أن فيها من الرد على ذلكم الإنكار للرسالة، وتحدِّيهم بالمساس من ألفاظه بشيء .

---

(1) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، أبو عبد الله، محمد بن عمر(ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي–بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، (١٢٣/١٩).

٥ – اللام المزحلقة:

اللام في قوله: ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ تسمى مزحلقة، وهي لام توكيد، أصلها لام الابتداء، تأتي في صدر الجملة الاسمية لتوكيدها، فإن دخلت عليها (إنَّ) زحلقتها بعيداً عنها [١]، " وفائدتها توكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ "[٢]، فغرضها إذن تأكيد الخبر وهو الحفظ، ونسبته إلى القرآن الكريم، أي: تأكيد ثبوت حفظ القرآن الكريم.

فهذه خمسة مؤكِّدات في الجملتين، وهي مؤكِّدات للجملة الاسمية، وكونها كذلك له دلالاته وأغراضه، فيما سيبدو إن شاء الله.

المطلب الثالث: كون الجملتين اسميتين:

إذا نظرنا إلى الجملتين في الآية الكريمة سنجد أن كلتيهما اسمية وليست فعلية، ولا شك أن دلالة الجملة الاسمية تختلف عن دلالة الجملة الفعلية.

إن الجملة الاسمية تفيد في أصل وضعها الثبوت، وقد تخرج عن هذا الأصل لتفيد الاستمرار والدوام بحسب القرائن؛ كأن يكون الحديث في مقام المدح أو الذم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، فسياق الكلام في معرض المدح دالٌّ على إرادة الاستمرار مع الثبوت. بينما الجملة الفعلية فهي موضوعة لإفادة التجدد والحدوث، وقد تفيد الاستمرار التجددي شيئاً فشيئاً بحسب المقام، وبمعونة القرائن، بشرط أن يكون الفعل مضارعاً[٣].

---

(١) التطبيق النحوي، الدكتور عبده الراجحي(ت٢٠١٠م)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م، (ص١٥٥).

(٢) فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (نظم الآجرومية لمحمد بن أبَّ القلاوي الشنقيطي)، الحازمي، أحمد بن عمر بن مساعد، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، (ص٣٧٦) .

(٣) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (ت١٣٦٢هـ) ، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية-بيروت، (ص٦٦).

فالجملتان في الآية الكريمة تدلّان على الثبوت :

فأما الجملة الأولى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ فتفيد ثبوت نزول الذكر من منزِّله الحكيم العظيم وهو الله تعالى.

وأما الجملة الثانية: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فتفيد ثبوت حفظه، بحيث لا يستطيع أحد أن يعبث به أو يغيِّر منه أو يبدل فيه.

وهذا الثبوت لنزول القرآن من منزله سبحانه، وحفظِه على الدوام فيه ردٌّ على زعم المشركين واستهزائهم.

المطلب الرابع: دلالة استعمال ﴿نَزَّلْنَا﴾ .

قبل بيان دلالات استعمال هذا الفعل يحسُن أن نقف على معناه:

عند النظر في معاجم اللغة نجد أن معنى (نزل) يُرَاد به معانٍ، أهمها:

الأول: النُّزُول: الحلول، والنُّزْلُ: ما يُهيَّأ للنَّزيل وهو الضيف، وجمعها أنْزال. ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٧].

الثاني: النُّزُول: الانحدار من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ.

الثالث: التَّنْزيل: الترتيب، والمَنْزِلة: الرُّتْبة، واستُنْزِل فلان حُطَّ عن رُتبَته.

الرابع: التَّنَزُّل: النزول في مُهْلَة. والنَّزْلَة: المرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم] [1].

وهذه المعاني منها ما يُشعِر بالتجسيم صراحة؛ كما في المعنى الأول والثاني، ومنها ما يُفهَم منه معنى التجسيم وإن لم يدل عليه صراحة؛ كالمعنى الثالث والرابع. ويقيننا أن

(1) ينظر: مختار الصحاح، (ص٣٠٨)، ولسان العرب، (٦٥٦/١١-٦٦٠).

كلاً منها لا يمكن أن يصدُق على كلام الله، لأن كلامه تعالى صفة معنىً، وحينئذٍ يلزم صرف معناها إلى معنىً آخر، ألا وهو الإيصال والإبلاغ، أي: أوصلناه إليه وأبلغناك به. وإذا كان ذلك كذلك فما الحِكْمة من استعمال لفظ الإنزال دون الإيصال أو الإبلاغ؟

الحِكْمة فيما يبدو أن لفظ الإنزال يُشعِر ببُعْد مكانة هذا الكتاب الكريم، وعلوِّ منزلته وتشريفه، وهذه المعاني لا يفيدها لفظ الإيصال أو الإبلاغ.

وفوق هذا فقد " أضاف سبحانه وتعالى القرآن العظيم إلى الذات العلية المقدسة فاستفاد بهذه الإضافة شرفاً إضافياً فوق شرفه الذاتي الذي جعله اللّه تعالى كذلك، واستفاد بهذه الإضافة أيضاً أنه نزله بالحق الذي وعد به وقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨]، فما نزله إلا بالحق والأمر الثابت"[1].

وقد يسأل سائل فيقول: لِمَ استُعمِل لفظ (نزَّل) دون (أنزل)؟

إن استعمال لفظ التنزيل مع القرآن الكريم له دلالات لا يؤديها لفظ الإنزال، حيث " يدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم، فإن علماء اللغة يُفَرِّقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقًا، والإنزال أعم "[2]، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران]، فاستعمل لفظ التنزيل مع القرآن الكريم، ولفظ الإنزال مع التوراة والإنجيل؛ إعلاماً بأن القرآن الكريم تميّز بنزوله منجماً، خلافاً للتوراة والإنجيل اللذيْن كان نزولهما جملةً، وهذا المعنى الذي ينسجم وسياق الآية الكريمة التي هي موضوع البحث، حيث إن لفظ التنزيل فيها أفاد معانٍ، أهمها:

---

(1) زهرة التفاسير، أبو زهرة، محمد بن أحمد(ت١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، (٤٠٧١/٨).

(2) مباحث في علوم القرآن، (ص١٠٦).

- أن القرآن الكريم قد نزل منجماً على طول فترة النزول، وهي عشرون عاما ونيّف.

- وأن في نزول القرآن نجوماً طيلة هذه المدة تحدٍّ مستمر؛ إذ كل نجم ينزل يحمل معه التحدي والإعجاز، ليستمر هذا التحدي إلى أن يكتمل نزول القرآن. وهذا يدحض شبهة المشركين وإنكارهم لنزوله من عند الله، وتكذيبهم لرسالة محمد ﷺ.

- وفي مجئ ذِكْر التنزيل بصيغة الماضي في سياق جملة اسمية يحقق غاية مهمة، ألا وهي ثبوت هذا التنزيل وتحققه، بما يحمله من إعجاز وتحدٍ ثابت وباقٍ إلى ما شاء الله تعالى.

المطلب الخامس: دلالة الجمع في الآية:

ورد الخطاب في الآية بالجمع في خمسة مواضع؛ في ضمير المتكلم المتصل في موضعين؛ قوله: ﴿إِنَّا﴾ مكرر مرتين، وفي قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾، وضمير الفصل ﴿نَحْنُ﴾ في موضع واحد، والواو في ﴿لَحَافِظُونَ﴾، وجميعها مضافة إلى الذات العلية، فما وجه الحِكْمَة في الخطاب بالجمع دون الإفراد، مع أن هذه الأفعال مسندة إلى واحدٍ وهو الله سبحانه وتعالى؟

إن الحكمة في ذلك تبدو من خلال أمور، أهمها:

أولاً: أنه لا يخفى ما تحمله الآية من التعظيم والتفخيم لجناب الله العليّ الأعلى، قال الفخر الرازي: " فأما قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ فهذه الصيغة وإن كانت للجمع إلا أن هذا من كلام الملوك عند إظهار التعظيم، فإن الواحد منهم إذا فعل فعلاً أو قال قولاً قال: إنا فعلنا كذا وقلنا كذا، فكذا هاهنا "[1].

إن هذا الأسلوب الذي تبدو فيه العَظَمة والجلال لهو الأنسب في هذا المقام الذي فيه من الجحود والإنكار ما فيه، فهو يبعث بالهيبة في تلك النفوس المريضة، التي يعلوها الكبرياء والأَنَفَة، حتى قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾

(1) مفاتيح الغيب، (١٢٣/١٩).

[الحجر].

ثانياً: من ناحية أخرى إذا وقفنا على شواهد من القرآن الكريم حول هذا الموضوع سنجد أنها تناولت الخطاب بالجمع وبالإفراد، وعند إنعام النظر في تلك الآيات التي بالجمع نجد أنها جاءت في سياق الإخبار عمّا يجريه الله تعالى من تصريفات على يد بعض خلقه، فقوله تعالى مثلاً: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة] الأمْر بفرْق البحر صادرٌ من الله، بينما التنفيذ فهو من خلْقِه، ومثله كثير في كتاب الله. أما ما كان بالإفراد، فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤﴾ [طه: ١٤]؛ لأن شأن الألوهية لا يشارك اللهَ تعالى فيها أحدٌ، وكذا العبادة والصلاة لا ينصرفان إلا لله، ومثل هذا الشاهد كثير في كتاب الله. وإلى مثل هذا المعنى أشار ابن الصائغ قائلاً: " قيل: لَمّا كانت تصاريف أقضية الله تعالى تجري على أيدي خَلْقِهِ نُزِّلَتْ أفعالهم منزلة فِعْلِه مجازًا "[1]. وهذه الآية الكريمة موضوع البحث جاءت فيها الضمائر مجموعة؛ لكون تنزيل القرآن لم يكن مباشرة من الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وإنما جرى إنزاله بواسطة جبريل عليه السلام، وكذا حفظ القرآن، فقد تكفَّل الله بحفظه حقيقة، ثم هيَّأ لذلك السُّبُل بأن يقوم به بعض خلقه، فحفظوه في الصدور والسطور. وفي ذلك يقول الشيخ الشعراوي –رحمه الله–: " الأسلوب القرآني حين يأتي بـ «إني» يشير إلى وحدة الذات، وحين يأتي بـ «إنَّا» يشير إلى تجمع صفات الكمال؛ لأن كل فعل من أفعال الله يقتضي حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهاريةً ورحمانيةً؛ لذلك لا بد من ضمير التعظيم الذي يقول فيه النحويون: إن «نحن» و «ن» للمعظم نفسه ... ولذلك

---

(1) اللمحة في شرح الملحة، ابن الصائغ، أبو عبد الله محمد بن حسن(ت٧٢٠هـ)، المحقق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية–المدينة المنورة–المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م، (١/١٤٣).

نجد بعض العارفين الذي لمحوا جلال الله في ذاته وجماله في صفاته يقولون:

فسبحان رب فوق كل مظنة تعالى جلالاً أن يُحاط بذاته

إذا قال «إني» ذاك وحدة قدسه وإن قال «إنا» ذاك حشد صفاته[1]

المطلب السادس: دلالة استعمال ﴿ ٱلذِّكۡرَ ﴾:

إن لاختيار كلمة (الذكر) حِكَماً جليلةً، منها:

١ - مشاكلة لما قاله المشركون استهزاءً بالنبي ﷺ: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ [الحجر]، فناسب أن يرد عليهم من جنس الألفاظ التي يقولون.

٢ - لإفادة شرف القرآن ومكانته العلية، وذيْعه وانتشاره في الآفاق، حتى سمعت به كل أذن، ونطق به كل لسان في الأولين والآخرين، وقد وردت آيات تؤكد هذا المعنى؛ قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء]، وهذه الآيات تلفت الأنظار إلى هذا الكتاب الذي به يكون ذكرهم ، لأن الأمة إن عملت بما فيه فإنها سترتقي إلى ذلك الشرف والعلوّ، وسيكون لها ذِكْرٌ بين الأمم وحضارةٌ، وأما إعراضها فهو سبب فشلها وإذلالها، قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [طه:١٢٤]. وإلى هذا المعنى أشار صاحب تفسير روح البيان، قال: " ذكر بمعنى شرف في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ [المؤمنون:٧١] أي: بما فيه شرفهم وعزهم

---

(١) خواطر حول القرآن الكريم = تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٩هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، (٢٨١٦/٥).

وهو الكتاب "[١]. ولا يخفى أيضاً أن هذا المعنى فيه من الرد على استهزاء المشركين واستخفافهم بالقرآن، ومحاولاتهم البائسة في التقليل من شأنه ومكانته.

٣ – بيان أن القرآن ذكرٌ، فمن قرأه كان ذاكراً لله، وهذا فيه حثٌّ على الإكثار من قراءته ومذاكرته، وهذا أعون على حفظ القرآن، فإن الشئ الذي يكثر ذكره وترداده يصعب نسيانه .

٤ – الدلالة على أن القرآن فيه بيان كل شيء، وهو ذكرى لمن أراد أن يتذكر، وموعظة لمن أراد أن يتعظ، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص] ، قال الشوكاني –رحمه الله–: " ومعنى ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أنه مشتملٌ على الذِّكْرِ فيه بيانُ كلِّ شئ "[٢].

فهذه جملة من المعاني التي أفادها لفظ (الذكر)، ويقيننا أنه لا يوجد لفظ يمكن أن يقوم مقامه يفيد ما أفاد، ويؤدي تلك المعاني، ويحقق تلك الأغراض التي وُضِع من أجلها، إنه القرآن العظيم.

المطلب السابع: دلالة استعمال لفظ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

أولاً: معناها اللغوي ودلالاته:

يدور استعمال مادة (حفظ) حول معانٍ ترجع إلى أصلٍ واحدٍ، وهو مراعاة الشيء [٣]، ومن هذه المعاني :

– التوكُّل بالشيء: فالحافظ والحفيظ الموكل بالشيء يحفظه ويرعاه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سبأ].

---

(١) روح البيان، أبو الفداء إسماعيل حقي(ت١١٢٧هـ)، دار الفكر–بيروت، (٤/٤٤٣).

(٢) فتح القدير، (٤/٤٨١).

(٣) معجم مقاييس اللغة، (٢/٨٧).

– الحفظ نقيض النسيان وهو التعاهد وقلة الغفلة.

– إحصاء الأعمال: فالحَفَظة: الذين يحصون أعمال العباد ويكتبونها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار].

– المواظبة: فالمحافظة: المواظبة على الأمر، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة].

– الذَّبّ: فالمحافظة والحِفاظ: الذَّبُّ عن المحارم والمنعُ لها عند الحروب.

– الغضب: فالحَفِيظةُ: الغضب لحُرمة تُنْتَهكُ من حُرُماتك أَو جارٍ ذي قرابةٍ يُظلَم من ذويك أو عهد يُنْكث، فكأن تلك الحال تدعو إلى مراعاة الشيء [1].

هذه المعاني مجتمعة روعي فيها حفظ القرآن الكريم من جهتين:

الأولى: الحفظ من جهة جنابه سبحانه وتعالى ؛ حيث إن حفظه سبحانه عمَّ كل شيء ، ومن جملة ما حفظ القرآنَ الكريمَ.

الثانية: الحفظ من جهة المسلمين، فإن مراعاة حفظ القرآن الكريم تقتضي من المسلمين أن يتعاهدوه ولا ينسوه ، ويواظبوا على ذلك ، كما أن عليهم أن يجمعوه ويحصوه إذا اقتضت الضرورة [2] ، وأن يغضبوا له إذا أراد أعداؤه أن ينتهكوا حرمته، أو يعبثوا فيه، فيذبوا عنه كل دخيل عليه، أو سوء قد يصل إليه، وهكذا تكتمل صورة الحفظ لهذا الكتاب الكريم؛ من الله ومن المسلمين، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الأمر قريباً إن شاء الله.

---

(1) ينظر: لسان العرب، (٧/٤٤١-٤٤٢)، ومعجم مقاييس اللغة، (٢/٨٧).

(2) هذا الحفظ تمّ في عهد أبي بكر الصدق وعثمان بن عفان رضي الله عنهما؛ حين اقتضت الضرورة ذلك.

ثانياً: حكمة مجيئ ﴿ حَافِظُونَ ﴾ اسم فاعل:

جاءت كلمة ﴿حَافِظُونَ﴾ اسم فاعل مشتقة من الحِفْظ، بمعنى الرعاية والصون له من كل دخيلٍ أو ما قد يسوؤه. وقد جاء التعبير باسم الفاعل لحِكَمٍ جليلة؛ أهمها:

١ – إرادة تحقيق حفظ القرآن:

إن مما أفاد التعبير باسم الفاعل تحقيق حفظ القرآن الكريم وصيانته من التحريف والتبديل، أو أن يلحق به سوء، وذلك الحفظ متحقّق لا شبهة فيه، فإن صيغة اسم الفاعل هنا بمعنى المستقبل، ولذلك عمِلت عملَه، وفيها ما ليس في صيغة المضارعِ من الدلالة على أنه فاعلٌ ذلك لا محالةَ [١]، والتعبير به يشبه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف]، فجعل المتوقَّع الذي لا بد من وقوعه بمنزلة الواقع، قال الخطيب القزويني: " ومثل التعبير عنه –أي المستقبل– باسم الفاعل، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ [المرسلات] "[٢]، أي: واقعٌ لا محالة. ومثل هذا قوله ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ ، فإنما دلت على أن حفظ القرآن كذلك واقع لا محالة.

٢ – استمرار الحفظ :

أيضاً اسم الفاعل فيه دلالة على استمرارية حفظ القرآن وديمومته، إذ أنه يُشعِر بالتجدد والحدوث كالفعل المضارع، فكلمة (حافظ) في معنى نحفظ، قال المبرّد –

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد(ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي–بيروت، (٨١/١). وقد تحدث عن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠].

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن(ت٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل–بيروت، ط٣، (٩٦/٢).

رحمه الله– : " فإن جعلت اسم الفاعل في معنى ما أنت فيه ولم ينقطع أو ما تفعله بعد ولم يقع جرى مجرى الفعل المضارع في عمله وتقديره؛ لأنه في معناه "[١]. فيكون دلالة قوله تعالى: ﴿ لَحَٰفِظُونَ ﴾ على استمرار الحفظ، وهذه الاستدامة واقعة من جهتين: إحداها: معنى التجدد والحدوث المفهوم من اسم الفاعل، وثانيها: كون الإخبار بالحفظ وقع في جملة اسمية، وهي تدل على الثبوت –كما سبق–.

وهذان المعنيان –أعني تحقيق حفظ القرآن واستمراره– أكدهما قراءة نافع لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج] برفع « محفوظٌ » صفة القرآن [٢].

ثالثاً: تهيئة أسباب الحفظ:

إن المنطق السليم والتفكير الصحيح والعقل السوي يقضي بأن حفظ القرآن يكون بتهيئة الأسباب لذلك؛ بواسطة تلك العقول الراجحة، والقلوب الواعية، وأوعية الصدور، وبما تيسر من أدوات تعاضد المحفوظ. وبيان طرق حفظه على النحو الآتي:

الطريقة الأولى: الحفظ في الصدور:

وهي الطريقة الأولى التي بدأ حفظ القرآن بها، فقد جمعه الله تعالى في صدر رسوله الكريم ﷺ كما أخبر بذلك؛ حيث يقول: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة]، فكان ﷺ أول الحافظين للقرآن، ثم لقَّنه ﷺ للصحابة الكرام فحفظوه في صدورهم، وتسلسل حفظه بعد ذلك حتى وصل إلينا، ولن يزال.

---

(١) المقتضب، المبرد، محمد بن يزيد(ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب– بيروت، (١٤٩/٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط، (٤٤٧/١٠).

الطريقة الثانية: الحفظ في السطور:

كان لهذه الطريقة أسبابها وظروفها، وقد هيأ الله تعالى تلك الأسباب ليتم جمع القرآن وحفظه بما تيسر من أدوات الكتابة، وذلك وقع في مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي ما وقع في عهد أبي بكر الصديق ﷺ من جمعه؛ خشية ضياعه بموت حَفَظَتِه. وكان لهذه المرحلة خصائصها ومميزاتها.

المرحلة الثاني: ما وقع في عهد عثمان ﷺ، وكان ذلك لحسم الخلاف الواقع بسبب اختلاف القراءة. وكان أيضاً لهذه المرحلة خصائصا ومميزاتها.

وقد وضّح العلماء هاتين الطريقتين من طرق الحفظ، وبينوا ذلك بتفاصيل ليس هذا موضع الحديث عنها [١].

الطريقة الثالثة: حفظه بإعجازه:

ذكر جماعة من المفسرين أن من أسباب حفظ القرآن الكريم إعجازه، أي أن الله تعالى حفظ القرآن بالإعجاز الدائم في كل وقت، واعترض الآلوسي –رحمه الله– أن يكون الإعجاز وحده طريقة لحفظ القرآن، فقال: " وأنت تعلم أن الإعجاز لا يكون سبباً لحفظه عن إسقاط بعض السور؛ لأن ذلك لا يخل بالإعجاز كما لا يخفى، فالمختار أن حفظ القرآن وإبقاءه كما نزل حتى يأتي أمر الله تعالى – بالإعجاز وغيره مما شاء الله عزّ وجلّ، ومن ذلك توفيق الصحابة رضي الله تعالى عنهم لجمعه ..."[٢].

---

(١) لا يكاد يخلو كتاب من كتب علوم القرآن من موضوع جمع القرآن، بل إن أغلب المفسرين تحدثوا عن جمعه في مقدمات تفاسيرهم.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، محمود بن عبد الله الحسيني(ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية–بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، (٢٦٣/٧).

الطريقة الرابعة: حفظه بالذَّبّ عنه:

مُنِي الإسلام بأعداء يكيدون له منذ ولادته، وبدأ التشكيك في القرآن منذ اللحظة الأولى من نزوله؛ فقالوا عنه: سحر وشعر وأساطير الأولين وغيرها من الاتهامات والأباطيل التي لا تقوم على حجة أو تستند إلى دليل، ثم جاء بعد ذلك أقوام كان لهم إسهامات في هذا الكيد والتشكيك؛ منهم غلاة الإمامية الذين قالوا بأن القرآن قد دخله الزيادة والنقصان[١]، ثم ما زال مسلسل الاتهامات وإثارة الشبهات مستمراً إلى يومنا هذا [٢]. إلا أن الله تعالى قيض لكتابه الكريم من يذبُّ عنه الشبهات، ويدحض عنه المطاعن والافتراءات، وكلَّ ما لا يليق به على مر الزمان، ليبقى كتاب الله محفوظاً من مطاعن الملحدين، وشبهات المُغْرضين، ومطهراً عن أدناسهم وأرجاسهم.

الطريقة الخامسة: تسخير الكافرين لحفظه:

نعم، إن الله سخر من الكافرين من يكون عوناً لحفظ القرآن الكريم، فجعلهم يُسَخِّرون عِلمَهم وما وصلوا إليه من تكنولوجيا لخدمة كتابه الكريم، فصمموا من البرامج ما يحفظ القرآن عبر الأجهزة المختلفة؛ من أجهزة حاسوب وهواتف محمولة وغيرها، بل وعبْر شبكة الإنترنت، التي تتيح دخول القرآن بالصوت والصورة والكتابة إلى كل بيت من بيوت هذا العالم الصغير.

الطريقة السادسة: حفظ معانيه:

وأبعَد من حِفْظ المباني حِفْظُ المعاني، فإن من سمات القرآن الكريم أنه يؤيد بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً في الحق، وبناءً عليه فإن أيَّ دخيل في المعنى لا يتفق مع روح الشريعة ودلائل الآيات سرعان ما ينكشف سترُه، ويظهر زَيْفُه وتحريفُه، وينقلب صاحبه

---

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن، (ص١٣٨-١٣٩).

(٢) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني(ت١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، (٢٦٣/١) وما بعدها، وينظر: مباحث في علوم القرآن، (١٣٦-١٣٨).

خاسئاً وهو حسير، ليبقى القرآن محفوظَ المعاني كما هو محفوظ المباني.

رابعاً: وجوه حفظه:

تكفل الله بحفظ القرآن، وقد جاء حفظه من وجوه، أهمها:

١ – حِفظُه من التناقض والاختلاف، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

٢ – حِفظه من الضياع والنسيان.

٣ – حفظه من التغيير والتبديل والتحريف، وأن تعبث به الأيدي كما عبثت في التوراة والإنجيل.

٤ – حفظه من الزيادة فيه أو النقصان منه.

خامساً: من دلائل حفظه:

من عجيب ما يلاحظه الإنسان في شأن حفظ القرآن ما يرى من نماذج حيَّةٍ تؤكِّد بصورة قاطعة أن القرآن تنزيلٌ من حميد مجيد، إذ أن الإنسان حين يسمع هذه الشواهد يقف مبهوراً أمامها، ولا يسعه حينها إلا أن يخر ساجداً مذعِناً مقِراً بأن هذا ليس بكلام بشر، بل هو فوق مقدورهم ولا طاقة لأحد به، ومن هذه الشواهد :

١ – حفظه في صدور الأطفال:

هذا الشاهد حقيقة لا مراء فيها، إذ أن بعض الأطفال ممَّن هو في سن مبكرة جداً يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وهذا بلا شك آية من آيات الله، وسر من أسراره أودعها في كتابه [١] .

(١) يمكن مشاهدة مقاطع فيديو للطفل الحافظ أيام الدين فخر الدين من طاجيكستان عبر اليوتيوب.

٢ – حفظ العَجَزة والمعاقين للقرآن:

وهذا أيضاً شاهد من الشواهد التي تبين سر الله تعالى في كتابه، وتكفُّله بحفظه، فلقد رأيت أحد المعاقين، وقد وقف أمام لجنة اختبار يسألونه فيجيب، وعن مختلف الأسئلة التي تكشف مدى حفظِ هذا الشاب الذي به إعاقة، ومدى إتقان حفظه، وكل ذلك يجيب عليه دون تردد، أليس مثل هذا يُشعِر بأن القرآن محفوظ مكفول؟! [١].

٣ – حفظ الأعاجم للقرآن:

أيضاً نجد من الأعاجم من لا يُحسِن التحدث بشئ من العربية، لكنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ليتمثّل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

٤ – حفظه بكثرة الدراسات حوله:

من دلائل ومؤكِّدات حفظ القرآن تلك الدراسات التي أُلِّفت حول القرآن الكريم قديماً وحديثاً، والمؤتمرات التي تُعقَد هنا وهناك حول بعض علومه؛ مرة عن إعجازه، وتارة عن التفسير الموضوعي، وأخرى في الناحية الاجتماعية ، وهكذا. إضافة إلى تخصيص بعض المجلات والموسوعات العلمية ذات الأبحاث المحكَّمة، كل هذا وغيره يعتبر من دلائل حفظه، وأنه لم يجرِ عليه تحريف أو تغيير.

سادساً: ثمرات حفظ القرآن:

من أهم ثمرات حفظ القرآن ما يأتي:

١ – إن حِفْظ القرآن حَفِظَ على الأمة شريعتها؛ عقيدة وفكراً وأخلاقاً وتشريعاً وسلوكاً، لأنه دستور الأمة ومرجعها الأصيل، وكان هذا الحفظ ضماناً لهذه

(١) يمكن الدخول على اليوتيوب لمشاهدة مقاطع فيديو للطفل الكفيف الحافظ جهاد المالكي، ولو تم البحث عن معاقين حافظين للقرآن لوجدنا صوراً أخرى غير هذا الطفل.

الشريعة الغراء في توجيهاتها وإرشاداتها في مختلف المجالات من أن تتغير أو تتبدل أو يُزاد فيها أو يُنْقَص، بما يترتب عليه ضمان الاستقامة لحياة البشرية.

٢ - لما أخبر الله تعالى عن نفسه بحِفْظ كتابه كان في ذلك تحفيزٌ للعواطف وإثارةٌ للهِمَمِ للمسارعة إلى حفظه وصونه من كل دخيل أو تبديل، ألا ترى أن الملك إذا أراد فِعْل شئ سابق القوم إلى فِعْله نيابة عنه؟ لذا وجدنا هذا السباق في لحظاته الأولى؛ حيث كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي بادر إلى حفظه، فكان يستجمع أركانه، ويلهج لسانه بالوحي حتى قال له ربه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة]، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤]، ثم وجدنا صحابته الكرام من بعده يتسابقون إلى حفظه وفهمه والعمل به، وكذلك مَن جاء بعدهم عبر الدهور والعصور، ولا شك أن في ذلك ثواب كبير، وأجور عظيمة.

٣ - إن حِفْظ القرآن حَفِظ اللغة العربية: فقد أنزل الله تعالى كتابه بلسان عربي مبين، وإن من أبرز خصائص هذه اللغة أن أبناءها المتحدثين بها بعد أكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة لا يزالون يفهمون ما كُتب بها قبل مئات السنين، في حين أن اللغات الأخرى يكاد يستحيل أن يقرأ غير المتخصصين ما كُتب بها قبل بضع مئاتٍ من السنين، وهذه الحقيقة لا ينكرها أحدٌ من أصحاب اللغات الأخرى، والسبب في هذا هو أن هذه اللغة حُفظت بحفظ كتاب الله عزّ وجلّ كما دلت الآية الكريمة [١].

سابعاً: حكمة تخصيص القرآن بالحفظ:

إن رسالات الأنبياء السابقين اختصت بأقوامهم، فرسالة كل نبي من الأنبياء

---

(١) ينظر: موقع المكتبة الشاملة، شرح الآجرومية، حسن بن محمد الحفظي، الدرس الأول، (ص١٣).

السابقين محدودة الزمان والمكان والأقوام، بينما رسالة النبي ﷺ فهي عالمية، جاءت للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ]، فحاجة الناس إذن إلى شريعة ومنهج يحكم حياتهم، وينظم علاقاتهم، ويضبط سلوكهم متجددة على الدوام إلى قيام الساعة، وهذا يستلزم حفظ تلك الشريعة والمنهج، لذا فإن الله تعالى تكفل بحفظ كتابه الكريم الذي هو تراث الأمة الأعظم في كل مجالات الحياة، وهو الدستور والمرجع في كل شئون الحياة. وماذا كان يحدث لو أوكل الله حفظه إلى البشر كما أوكل لهم حفظ التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب؟

إن البشر إن لم يكن بهم انحراف عن الجادة والاستقامة فإنهم عرضة للموت والنسيان، وإذن سيكون ذلك سبباً للتحريف فيه أو التغيير أو نسيان بعضه، عن قصد أو عن غير قصد، وإذن لفسدت جوانب كثيرة في حياة البشرية، وانحرفت عن الجادة والاستقامة، فاقتضى ذلك حفظ القرآن الكريم، وعدم توكيل حفظه إلى أحد ضماناً لاستقامة الحياة، ومراعاة لمصلحة البشرية.

وبعد

فهذا ما يسر الله تعالى من فَهْمٍ وعِلْمٍ لهذه الآية الكريمة، ومع هذا فإن مجال البحث فيها ما لا ينقطع، ولا يقف عند حدٍّ؛ لأن عجائب القرآن لا تنقضي باجتهاد شخص أو اثنين أو أكثر، ولو بحَثَ فيها الباحثون لاستخرجوا من مكنوناتها، واستنبطوا من عجائبها، وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ **[الكهف]، وقال:** ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ **[لقمان].**

والله الموفق والمستعان،

ومنه الفضل والإحسان، وله الحمد والامتنان،

وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من تقصير فمني ومن الشيطان،

والله ورسوله منه براء، وسلام على المرسلين،

والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

بعد هذا العرض المتواضع من جُهْد المقصِّر بما يتعلق بالآية الكريمة موضع البحث من تفسير وتدبر، يمكن الوقوف على أهم النتائج والتوصيات، وهي على النحو الآتي:

أولاً: أهم النتائج:

خلُص البحث بأهم النتائج الآتية:

١ – إن هذه الآية رغم قِصَرِها وقِلَّة ألفاظها، إلا أنها تحمل معانٍ واسعة، وتدل على حقائق ثابتة لا يستطيع أحدٌ إنكارها، وأهمها: أن منزِّل القرآن الكريم هو الله تعالى، وأنه تكفّل بحفظه إلى ما شاء الله، وهذا يؤكد إعجاز القرآن في إيجازه، وفي حقائقه.

٢ – إن معنى التدبر فيه خصوصية ليست في معنى التفسير، إذ هو يختص بالكامن الغامض في الآيات، والمستنبَط منها استنباطاً، فهو يبحث إذن فيما وراء النص، لذا فإنه يحتاج إلى مزيد نظر، وإعمال فكرٍ، كي تتكشّف له تلك الإيحاءات والدلائل، وهذا يأتي في مرحلة تعقب التفسير، وعليه فإن كل متدبِّر مفسِّر، وليس كل مفسِّرٍ متدبِّراً.

٣ – التدبر يحصل بطرق عديدة؛ منها: الوقوف على نظائر اللفظ، والفرق بينه وبين نظائره، ودراسة سياقه الذي ورد فيه، ومعانيه التي يُحمَل عليها، وعلاقة اللفظ بالواقع، مع الاستفادة مما يستنبطه الآخرون في مجالس المذاكرة والمدارسة، كل ذلك يكون في حالة من صفاء الذهن، وخلوِّه من مشكلات الحياة ومنغِّصاتها.

٤ – فوائد التدبر كثيرة، أهمها أن المتدبِّر يقوم بأمر الله تعالى وينفِّذه، وهو: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢، محمد:٢٤]، فتدبر كلام الله أفضل ما يشتغل به الإنسان من الأعمال.

٥ – مناسبات الآية في موضعها يبين مدى التلاحم والتناسق والانسجام التام بينها وبين ما سبقها وما تبعها، وانسجامها كذلك مع سياقها، وهو ما يُظهِر عَظَمة هذا القرآن ويكشف عن إعجازه.

٦ – إن الآية موضوع البحث جاءت رداً على المشركين في أبلغ صورة من الردِّ، بأوجز عبارة من اللفظ، تلك الشُّبهة التي قامت على الإنكار والاتهام والسخرية.

٧ – دراسة الآية من الناحية التركيبية كشفت عن حقائق ودلائل كبيرة؛ منها الدلالات الصوتية، والتوكيد فيها بمختلف المؤكدات، وما فيها من تقديم وتأخير، ودلالات في التعبير بالفعل، والجمع، وتخصيص اسم (الذِّكر)، والتعبير باسم الفاعل (لحافظون)، وأمور تتعلق بحفظ القرآن الكريم؛ من استمرار حفظه، والحكمة من تخصيص القرآن بالحفظ دون غيره من الكتب، وتهيئة أسباب الحفظ، ووجوه حفظه، ودلائله، وثمراته.

ثانياً: أهم التوصيات:

١ – أوصي بأن تكون هناك دراسة موسعة لآيات القرآن، دراسةً تعتمد على تدبر الآية والتعمَّق في بيان معانيها، ويكون ذلك بحَثِّ طَلَبة العلم في المراحل العليا، وخاصة من يُتَوسَّم فيهم القدرة على الإفادة في مجال التدبر – أن تكون رسائلهم في هذا المجال التخصصي، ومن ثَمّ الخروج بسِفرٍ ضخم في التفسير والتدبر، يجد الإنسان فيه بغيته، ويسد حاجته.

٢ – عمل دراسات متخصصة حول موضوعات معيّنة في مختلف المجالات؛ اجتماعية، سياسية، اقتصادية، تربوية إلى ما سواها من المجالات، بما يلبِّي حاجة العصر، ومتطلبات الحياة.

فعلى سبيل المثال: يقوم باحثٌ ما بدراسة موضوع (إدارة الأزمات الاقتصادية من خلال قصة يوسف عليه السلام) فيستنتج نظرية اقتصادية قائمة على دراسة قرآنية، أو

(القيادة والقائد من خلال قصة موسى عليه السلام أو ذي القرنين)، ونحوها من الدراسات التي تلبي حاجة العصر، وهي دراسات تعتمد بالدرجة الأولى على التدبر لآيات القرآن الكريم.

والله الموفق والمستعان

فهرس المراجع

١ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.

٣ – الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق (ت٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت الطبعة: الثالثة.

٤ – البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٥ – بيان المعاني، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (ت١٣٩٨هـ)، الناشر: مطبعة الترقي – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ–١٩٦٥م.

٦ – التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٧ – التطبيق النحوي، الدكتور عبده الراجحي (ت٢٠١٠م)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.

٨ – التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، تحقيق:

ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٩ – تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٠ –جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١١ –جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

١٢ –خواطر حول القرآن الكريم = تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٩هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

١٣ –دستور العلماء=جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٤ –دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٥ –روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء

(ت١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.

١٦ –روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

١٧ –زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ.

١٨ –زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.

١٩ –الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

٢٠ –صحيح مسلم، مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم (٢٦٩٩)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢١ –العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د. مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٢ –فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (نظم الآجرومية لمحمد بن أبَّ القلاوي الشنقيطي)، أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي، الناشر: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

٢٣ –فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤هـ.

٢٤ –الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

٢٥ –الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢٦ –لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت٧٤١هـ)، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥هـ.

٢٧ –لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

٢٨ –اللمحة في شرح الملحة، محمد بن حسن بن سِباع بن أبي بكر الجذامي، أبو عبد الله، شمس الدين، المعروف بابن الصائغ (ت٧٢٠هـ)، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م.

٢٩ –مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (ت١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.

٣٠ –محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي

(ت١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه- بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٣١ -المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٣٢ -مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.

٣٣ -مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت٧١٠هـ)، تحقيق وتخريج أحاديث: يوسف علي بديوي، مراجعة وتقديم: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٤ -مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٣٥ -المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة.

٣٦ -معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٧ –مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

٣٨ –المقتضب، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب – بيروت.

٣٩ –مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت١٣٦٧هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.

٤٠ –المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤١ –موقع المكتبة الشاملة، شرح الآجرومية، حسن بن محمد الحفظي، الدرس الأول.

٤٢ –نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الناشر: مؤسسة الرسالة – لبنان – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

٤٣ –النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي–محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية–بيروت، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م.

فهرس المحتويات

تمهيد : معنى التفسير والتدبر، وما يعين على تدبر القرآن وفوائده ... ٢٥٠
المبحث الأول : دراسة قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ موقعها ونزولها ٢٦٠
المطلب الأول : تعريف وجيز بسورة الحجر: ٢٦٠
المطلب الثاني : علاقة الآية في سورتها مع السابق واللاحق من السور ٢٦٠
المطلب الثالث : مناسبة الآية مع السياق ٢٦٢
المبحث الثاني : المعنى العام لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾..... ٢٦٤
وتفنيد شبهة المشركين ٢٦٤
المطلب الأول: المعنى العام للآية:..... ٢٦٤
المطلب الثاني : تفنيد شبهة المشركين وقوة الرد ٢٦٥
الجهة الأولى: إنكار الجهة المنزِّلة للذكر ٢٦٥
المبحث الثالث : الدراسة التركيبية لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ ٢٦٩
المطلب الأول: دلالات صوتية ٢٦٩
المطلب الثاني : المؤكِّدات في الآية ٢٧١
المطلب الثالث: كون الجملتين اسميتين ٢٧٤
المطلب الرابع: دلالة استعمال ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ٢٧٥

المطلب الخامس: دلالة الجمع في الآية ٢٧٧

المطلب السادس: دلالة استعمال ﴿ ٱلذِّكۡرَ ﴾ ٢٧٩

المطلب السابع: دلالة استعمال لفظ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ ٢٨٠

الخاتمة : ٢٩١

فهرس المراجع : ٢٩٤